الريح باتجاه الأسود

قصة بقلم هاني الراهب

عندما أستيقظ في الصباح أراها ، ولكن في صورة مختلفة . ليس في وسع المستفيق أن يزوق العالم أمام عينيه ، خاصة اذا كانت الريح باتجاه الاسود . في النوم أراها ، دانية معشبة ، أو بالاحرى أرى نفسي على أديمها، أرى قدمي حافيتين تسيران على ترابها الفضاري الدافىء، والتراب يندس بين أصابعي وأصابعي تندس في التراب. وعندما أستيقظ في الصباح أراها أيضا ، ولكن في صور مختلفة : بعيدة ، منفية ، مغتصبة .

أي شيء بوسعه أن يكون أفضل من ذلك التراب ؟ في صباي التقط العراف يدي وقال لي : أقرأ في كفك ذلا مقبلا ، يهجم عليك ويطرحك ، لانك أصغر من الريح والتراب . وها قد مضت أربعون سنة نصفها جهل ونصفها ذل . يومذاك لم أكن أحفل بها ، ولا كانت الوديان والنجود وأوشحة السندس شيئا استثنائيا . حتى روائح الانبياء وأوابد الزمن لم تفجر فيّ أحاسيس الآن . وذات صباح قديم خرجت من أحد جيوب التاريخ أسحب ورائي ظلا طويلا . رأيته يمتد من قدمي وحتى الافق ، فوق أرضي ، أنا ابن آلاف الاعوام من الحضارات والرسالات والشعر . وعند العصر هبت علينا من جميع أصقاع العالم أقوام تثير غبارا كالغمام ، فمحا الغمام الاسود ظلي وجرفتني صواعقه .

عندما أستيقظ في الصباح تقول زوجتي : الخبز الذي أتيت به البارحة ، من أين ؟ كم هو لذيذ ! يقرمش في الفم مثل الجوز . من أين اشتريته ؟ اشتر لنا منه كل يوم . ان خبز هذا الفرن الذي نأكل منه لا يؤكل . وأقول لها : رأيته بالصدفة على مقربة من فم السوق .

عندئذ يمتعض وجهها وينكمش على النحو الذي أعرف . وأخرج باحثا عن انسان أقول له : كله خبز ، كله بكاء . في الشارع تلطم بي المناكب والعيون مقفلة ومسرعة الى تبديد الزمن . أمشي بين الناس واحدا منهم ، مفردا ، ذكرى عن أرض منفية مغتصبة . أم انني أنا المنفي المغتصب ؟

يبتدرني الرفاق في العمل بعاصفة ضحك أثارتها نكتة لم أسمعها . أبتسم بالعدوى وأنتقل بينهم أبله الوجه : مسترخون على مقاعدهم منفرجو الارجل . يصيح أحدهم : اسمعوا هذه النكتة : أعطى أحد الرؤساء حاجبه خمسة قروش وقال له اذهب واشتر لي تلفزيون.

وأرسل رئيس آخر حاجبه وقال له اذهب الى مكتبي واسأل عما اذا كنت هناك أم لا . في الطريق التقى الموفدان فشكا أولهما للثاني : أي رئيس هذا الذي جعله الله رئيسي ؟ تصور انه أعطاني خمسة قروش لاشتري له تلفزيون دون أن يعطيني أجرة الطريق . وقال الثاني : ان حالي لاشد ايلاما ، فرئيسي أرسلني من بيته لاستفسر هل هو في المكتب أم لا ، وكان بوسعه أن يعرف ذلك بنفسه وبسهولة ، فالهاتف لا يبعد عن متناول يده نصف متر .

مرة أخرى تهب رياح الضحك . رياح كالهباب . ويخيل الي ان عيني اعتلتا. جميع الالوان تفسر ولا يبقى لهما الا الاسود . ويسألني عبد الله أخي أسيان : أنت والسيد محمد ، مالكما لا تضحكان ؟ نريد منك نكتة . تسمع نكتاتنا ولا تحكي لنا .

مزيد من المماحكة ، لان الوقت طويل وثقيل . قد ننفجر اذا لم نقل شيئا . أين نذهب بكل هذا الورم والانتفاخ ، بالجرح والفخر ؟ أعرف البؤس جيدا أيها الرفاق وأعرف قيمة الضحك . ما من شعب يحسن الضحك على نفسه مثلنا . لدي نكتة ولكني لا أستطيع حكايتها .

ويقول عبد الله مقطبا : ماذا نفعل ؟ لم يبق غير التسلية . تعودنا رثاء موتى الناس بأشعار طويلة ، وليس الناس الموتى .

وأقول له : سأروي لكم مع ذلك نكتة قديمة : ذات صباح أغمضت عينيّ وقلت لنفسي : جرب يا فتى أن تمشي كالعميان ، لتعرف كيف يعيش هؤلاء . أغمضت عينيّ وسرت على أرضي . كان الاحساس رائعا ولكن لم يتغير شيء . لم يدخل الغبار في عينيّ ولم تؤذهما الشمس ولم تطرفهما الريح . وكنت في غنى عن هذه الحيطة ، اذ لم يسبق للغبار أو الشمس أو الريح ايذاء عينيّ . الا انني لم اعد مضطرا للسرعة ولا للتعب. تكامل العالم حولي وصار أبخس من شروى نقير ، فقد انقطعت صلتي به وما عدت لاحمل همًا . ولم يطب لي فتحهما الا عندما وجدت نفسي أتدافع عن أرضي مسرعا من حيث لا أريد . واذ ذاك فتحتهما مرغما . وجدت الريح تحملني الى المدن الفاضلة ، بعيدا عن الارض . ووجدت من يدعونني لاجئا ، وللتلطيف نازحا .

لقد شاهدت أرضي فيما بعد . اخذتني اليهـــا وكثيرين غيري سيارة . اقتربنا منها . كان بيننا أمتـار فقط . رأيتها خلال نافذة مظلمة ، ولم أستطع رؤية شيء : لا التراب ولا التضاريس ولا السندس . كل ما فيها غارق في ظلمة . سوداء هي . والريح ما زالت تثير فوقها غبارا كالغمام . أين الذكريات ؟ أين الصبا الفض ؟ وعلمت ان بيننا أمتارا لا تحصى تمتد من عند قدمي وحتى الافق ، وانني لا أزال في مدينتي الفاضلة .

انها قريبة . ان أقذف حجرا يسقط عليها . أو اذا غنيت موالا تسمعني . وأحيانا يطيب لي قذف الحجـارة واطلاق المواويل . في الرابعة صباحا ، والشوارع نظيفة على نحو مدهش ورائع ، تعبر بي نوبة نظافة أنا الآخر . وأحسب اني قادر على القيام بفعل ما ، فأغني لهـــا . أقول لهـا :

بلادي زمانا طويلا أذلّك الغاصبون .. يا بلادي
أطلّي قليلا وهاتي وهاتي دليـلا فاننا راجعون
أجل ، هاتي دليلا .

ويكون الليل مسجى فوق المدينة ، وشعبي فـي غطيط نومه مسجى هو الآخر . أغني بكل قوتي للقهـر والذل والغضب ، وأصيح بوجه العالم الاصم . وعندمـا يعيا الصوت أبكي ، وتسمعني أيضا . وأشرع بقـذف الحجارة فتصل اليها . ثم تنفد طاقتي فأقف متهدلا متأملا العالم والليل اللذين شرنقاني . أتـذكر النهار المقبـل حاملا الى الشوارع نفايات وأوراقا وأعقـاب سجـائر ، فشعبي يستيقظ في السابعة . وأعود الى جدران بيتي القديـم .

عند العصر تقص لي زوجتي حكاية مشوار فظيع . قيل لها ان في آخر البلد عرافة مذهلة . ركبت وجارتنا أم محمد اليها حتى آخر الخط . ومن هناك مشتا بيـن ركامات وحفر فظيعة . وقعت على وجهها مرتين وكادت تجرح . في النهاية وصلتا . وأي منظر مريع ! وجـه مجدور محفر وعين عوراء . وابتدرتها بلا رحمة : ضعي نصف ليرة تحت هذا الفنجان . فوضعت . وتناولت يدها وبدأت تقرأ الكف مثـل الجريدة . ومما قالته : أنت متزوجة . لم تنجبي أطفالا حتى الآن وتخافين من كونك عاقرا . زوجك مثقل قلبه مشدود مثل قلب الـدولاب . أبشري ، سيموت قتيلا . أي بشرى ! هذه هي عـادة العرافين في التلذذ بعذاب ضحاياهم . وأخيرا أعلنت بجفاف انها لا تعرف عن المستقبل شيئا سـوى انني سأموت قتيلا .

تغص عندئذ كلماتها . تكاد تبكي وهـي تحملق فيّ بخوف وتساؤل .

لن أموت بهذه الطريقة يا عزيزتي ، فما من أحـد يهتم بقتل المساجين . لم يعد لهؤلاء العرافين ما يقولونه سـوى اننا سنموت . صارت عيوننا مفتحة يدخل اليها الغبار وتؤذيها الشمس والريح . سأموت يوما ما كمـا يموت البعير بعد أن تختنق جميع رغباتي . لماذا هـذه الـدموع بلا ثمن ؟ موتي كما مات ذلك الشاب ميتته المخيفة الرائعة ولا تبكي . المهم الآن ان نخرج من السجن ، سجن الجهات الاربع . منذ عشريـن عاما طردت مـن أرضي وتزوجنا وبدأت أدور بناعورة الزمن . أسمـع الاشعار ، أرى الايدي المشرئبة ، أقرأ القصص والمسرحيات .

ـ ما هذه المجلة التي تقرأ ؟
ـ المسرح والسينما .
ـ فيها صور ؟
ـ قليل . صور صغيرة .
ـ لا بأس . أعطني لأتفرج عليها . أليست هـذه صوفيا لورين ؟

في الخارج تعصف الريح . تتراكض في المدينـة كخيول خرافية . تقتلع ورقة صفراء من احدى الاشجار وتقذفها في الفضاء الرمادي . سيارة سوداء مسرعـة تدهس طفلا وتصرعه . في المدينة ينبغي المشي عـلى الارصفة لئلا نموت مجانا . الشوارع للسيارات والارصفة للعابرين . تمشي ولكن الى أين ؟ داخل المقاهي يضيـق السجـن وتكثر الاصوات الطاحونية . داخل الخمارات ينفجر قلب الدولاب . وخارج البيوت لا مكان لاحد ، لان لا عمل لاحد . ليس صحيحا ان الحصار يولد الانفجـار والا لطارت شظايا المدينة وسقطت في أرضي . لا يستطيع أحد ولا شيء ثقب أي من جدرانها السبعة .

في الاسواق

قصة الحرب القذرة ...

فـي فيتنام !

اقراها في رواية الروائي الاسترالي الشهير
موريست وست

السفير

كما يقصها سفير اميركي عين فـي سايغـون ، فعاش مؤامرات المخابرات السرية الاميركية مـع عدد من الجنرالات المتآمرين ، وخـرج بمأساة شخصيـة تجسدت فـي صراع بيـن الاخـلاق والانتهازيـة السياسية ...

ترجمها : نزيه الحكيم

منشورات دار الآداب

من خلف شكل هذه المدينة النجمي اشم رائحتها . يقول الترانزيستور ان الناس هناك ، الشباب ، يموتون بطريقة مختلفة . كان وجهه نضيرا ودقات قلبه ثمانين في الدقيقة عندما قذف بنفسه بينهم على ترابها الفضاري الحار . لو اجتمع فوقها العرافون لما قرأوا مستقبلا غير القتل . أما هنا فيقدمون المستقبل على طبق ، مزركشا باللغة العربية . في أيديهم دفاتر ومطبوعات وملفات ، وفي جيوبهم حوافظ لارقام الهاتف في المكتب والبيت . وأمام أفواههم مكبرات للصوت . الترانزيستور والهاتف والمكبرات اقطاب المستقبل الرائع.

يرفع أصابعه محييا ، ثم تعرج السيارة نحو الرصيف وتقف حذاءه . سلاما يا رفيق الجامعة والشوارع التي كانت تستعصي على الشرطة . خمس دقائق للانتهاء من التحية ، وبعدئذ : دعنا نراك .

ـ يا سيدي العزيز ، ان مساحتها لا تبلغ ثلاثة بالالف مما عندكم . ساعدوني كيف أوقف هبوب الريح عليها واستردها .

ـ تقصد الارض ؟ ليست القضية مساعدة ، بل قضية مصير مشترك . هي أرضنا جميعا . بقاؤنا رهن باستردادها . ومنطلقنا في جميع ما نخطط ونعمل هو هذه الارض . اننا لن نتردد في خوض المعركة المصيرية الفاصلة . لتكن التضحيات جسيمة والصمود مستميتا ، ولكن في النهاية سيعرف العالم أجمع ان النصر النهائي للحق .. للحق وحده .

ـ نعم ، أرضنا أيها العزيز . متى ؟

ـ صبرا بعض الوقت . لا بد من الاستعداد أولا ، ثم نكون قادرين على تحديد زمان ومكان المعركة . نحن معا في هذه المدينة . نعمل ونموت معا .

ـ يكاد جلدي ينفجر كما انفجر جلد مقداد الشاب بالديناميت والقنابل .

ـ كان استشهاده رائعا . الى اللقاء .

وأما بنعمة ربك فحدّث .

أسألهم : حدثوني بربكم كيف مات مقداد ؟ ويقولون: هذه ليست نكتة بل هو فعل مجيد . لقد حمى انسحاب رفاقه بعد المعركة حتى صاروا في مأمن . لكنه وقع في الطوق . حاصروه كما يحاصر المطاط الاسود قلب الدولاب الاحمر . لم يفاجئه الموت . بهدوء عمد الى متاعه فحشا ثيابه به من قنابل وديناميت . وحين اقتربوا منه لاعتقاله ارتمى بينهم . انفجر وفجرهم معه وقتل الجميع . موته قتل أكثر من حياته .

« والضحى . والليل اذا سجى . ما ودّعك ربك وما قلى » . أيها الشاب ، يا فتى من شعبي وبلادي ، ها قد بدانا نمتلك الريح .

دمشق — هاني الراهب

الوحدة العربية آتية !

للمؤرخ البريطاني الشهير
ارنولد توينبي

عرف المؤرخ البريطاني الشهير ارنولد توينبي بتعاطفه مع العرب وتأييده لقضاياهم . وان مواقفه من اسرائيل وعدوانيتها وعنصريتها لا تزال في الاذهان .

وفي هذا الكتاب يتنبأ توينبي بان الوحدة العربية لن تستغرق من الزمن حتى تتحقق ما استغرقته الوحدة الالمانية والوحدة الايطالية ، ولن تنحرف مثلهما ، بل ان سنة ١٩٧٤ هي الحد الاقصى (كما يقول توينبي) لاشراق نور هذه الوحدة العربية .

ويتحدث المؤرخ البريطاني عن العقبات التي تعترض الوحدة العربية والوحدة الافريقية ، ولكنه يؤكد ان هذه العقبات ، ومنها مصالح بعض الافراد والاسر المستفيدة من التجزئة ، ستزول تدريجيا ، وان الوحدة العربية قادمة قريبا ، وويل لمن تعميه مصلحته الموقتة من أبنائها عن الحق ، وويل اكثر لمن يقف في طريقها ، معاداة للخير ، من غير ابنائها . . .

وفي هذا الكتاب الممتع تأملات تاريخية طافت بذهن توينبي اثناء رحلاته الثلاث الى بلدان افريقية ، شمالي وجنوبي الصحراء الكبرى ، وعرض دقيق لمشكلة السودان ونيجيريا ، وائتلاف الاسلام والمسيحية في الحبشة وتاريخ نهر النيل ، ووصف شيق لمنطقة « سد الجبل » في أعالي النيل وورشة « اسوان » و « الجزيرة » في السودان ، مع زيارة الى غزة ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين واشادة بالخدمات التي قدمتها مصر لتلك المنطقة . كل ذلك في اسلوب شيق ونفس انساني رفيع وروح دعم وتأييد للنضال العربي